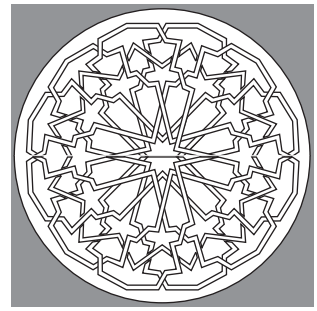

الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي وأثره في أصول الفقه

أ.د / محمد إبراهيم الحفناوي
أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإنه لم يعرف لأمة من الأمم على وجه الأرض مثل ما عرف للأمة الإسلامية من تراث ضخم في سائر العلوم والفنون، ومن يخالجه شك في ذلك فليلقِ نظرة على فهارس دور الكتب العالمية؛ ليعرف مقدار ما تحويه هذه الدور من عيون هذا التراث.

بيد أن ما ظهر منه للناس محققًا مخرجًا مدروسًا لا يساوي عشر معشار ما بقي مخطوطًا، وما ظهر غير محقق.

وإن من العلماء الذين أثروا المكتبة الإسلامية، وساهموا بجهد كبير في نشر الثقافة الإسلامية الشيخ العلامة جلال الدين السيوطي -رحمه الله- الذي يعتبر في نظري مكتبة شاملة لكل ما يحتاج إليه الباحث.

فهو -دون ريب- يستحق دراسات متنوعة عن جهوده، وكتاباته في سائر فنون المعرفة، وقلما نجد باحثًا أو كاتبًا يكتب إلا ويذكر السيوطي في أثناء بحثه، وقد اعترف بفضله ونبله القاصي والداني.

وإن القارئ لِمُصَنَّف له في فن من الفنون يُخَيَّل إليه أنه لم يكتب في فن غيره لإجادته فيه، وسعة إدراكه، وتناوله الكلام فيه بعمق.

وهذا يدل على أن الشيخ -رحمه الله- اغتنم أيام حياته في الدنيا فلم يضيعها سدى، وإنما شغلها بالبحث والكتابة تارة، وبالعبادة تارة أخرى؛ مما يجعل من هذا الإمام مادة غزيرة للبحث والدراسة، وقد رأيت أن أتناول بعضًا من الجوانب المشرقة من حياة هذا الإمام خاصة ما يحتاج كثير من الباحثين إلى معرفته من هذه الحياة المعطاءة.

هذا: وقد اشتملت هذه الدراسة على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عصر السيوطي.

المبحث الثاني: التعريف به.

المبحث الثالث: أثر الشيخ في علم أصول الفقه.

والله أسأل أن يجعل هذه الدراسة في كفة حسناتي يوم يساق أهل الشر إلى سقر، ويساق أهل الخير إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

المبحث الأول
عصر السيوطي

لم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى وقعت الأمة الإسلامية في موجة من الضعف والتخاذل، وتوالت عليها الأحداث تهز كيانها، وتوشك أن تقضي على حضارة عظيمة عتيدة؛ حيث سقطت عاصمة الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو (٦٥٩هـ) الذي أتى فيها من منكرات الأمور ما لا ينساه التاريخ.

وفي الأندلس أخذ ظل الإسلام ينحسر عن هذه البلاد إلى أن انجلى عنها في صورة مؤلمة حزينة.

ولأمر أراده الله تعالى لحماية دينه، وحفظ كتابه قامت مصر والشام فحملتا لواء الزعامة الإسلامية، وأخذتا بزمام الحركة العلمية، والأدبية، والدينية، والسياسية، وصارتا الملجأ الوحيد لأبناء هذا اللسان في مملكة واحدة حاضرتها القاهرة، ولغتها العربية، وغايتها حماية الدين، فوجدوا فيها حرمًا آمنًا، وظلًّا وارفًا، وعيشًا رغيدًا، وموردًا عذبًا سائغًا.

ولم يجد الملوك الأيوبيون، والأمراء من المماليك ما يوطد سلطانهم إلا أن يعظموا الدين وأهله، ويأخذوا بيد العلم والعلماء، فأسسوا المدارس والمعاهد، ورصدوا الأموال والضياع لطلاب العلم والمعرفة، وأنشؤوا دور الكتب، وجلبوا إليها أنفس الكتب، والمصنفات.

وبالجملة، فقد غصت المدارس بخزائن الكتب، ونفائس المصنفات، وذخرت البلاد بالأعيان من العلماء، والفقهاء، والمؤرخين، ومؤلفي الموسوعات، وعرف ذلك العصر بعصر المجاميع، والموسوعات.

وفي القاهرة -عاصمة الخلافة- عاش السيوطي في ظل الحكم المملوكي، وعاصر دولة الجراكسة [٧٨٤- ٩٢٢هـ]، والتي تعاقب على الحكم فيها ثلاثة عشر سلطانًا، ونبغ في عصره غير واحد من العلماء منهم:

ابن حجر العسقلاني (٨٥٣ هـ)، والعيني: (٨٥٥ هـ)، وأبو المحاسن (٨٧٤ هـ)، والسخاوي (٩٠٢ هـ).

وهكذا توفر للسيوطي الحياة في بلد العلم والعلماء والموسوعات والمكتبات بالإضافة إلى ما نعم به من إرث لأسرة علمية حيث كان والده -رحمه الله- من فقهاء الشافعية.

المبحث الثاني: التعريف بالشيخ السيوطي

وفيه مطالب:

المطلب الأول: اسمه، ولقبه، ونسبته، ومولده.

المطلب الثاني: نشأته.

المطلب الثالث: مرحلة تلقي العلم.

المطلب الرابع: مرحلة الكتابة والتأليف.

المطلب الخامس: مصنفاته.

المطلب السادس: تصدره للفتوى.

المطلب السابع: العلوم التي تبحر فيها، والعلوم التي استعصت عليه.

المطلب الثامن: دعواه الاجتهاد المطلق.

المطلب التاسع: وفاته.

المطلب الأول
اسمه ولقبه، نسبته، مولده[1]

اسمه ولقبه: هو عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين جلال الدين الخضيري الأسيوطي.

قال رحمه الله: أما جدي الأعلى فكان من أهل الحقيقة، ومن مشايخ الطريق ومن دونه كانوا من أهل الوجاهة، والرياسة. منهم من ولي الحكم ببلده، ومنهم من ولي الحسبة بها، ومنهم من كان تاجرًا ... ولا أعرف منهم من خدم العلم حق الخدمة إلا والدي.

نسبته: الظاهر أن «الخضيري» نسبة إلى «الخضيرية» محلة ببغداد، وقد حدث الشيخ من يثق به أنه سمع والده -رحمه الله- يذكر أن جده الأعلى كان أعجميًّا أو من الشرق.

أما السيوطي فنسبة إلى مدينة «أسيوط» المعروفة في صعيد مصر.

مولده: أجمع كل من ترجم للشيخ -رحمه الله- على أنه ولد بالقاهرة بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة.

وقد حدثت يوم ولادته حادثة طريفة وذلك أن والده كان من أهل العلم، واحتاج إلى كتاب فأمر زوجته أن تأتيه بالكتاب من مكتبته، فذهبت لتأتي به فجاءها المخاض بين الكتب فوضعته فأطلق عليه «ابن الكتب».

المطلب الثاني
نشأته

نشأ -رحمه الله- يتيمًا؛ إذ إن والده مات وعمر الجلال خمس سنوات وسبعة أشهر، وقد وصل في حفظ القرآن الكريم إلى سورة التحريم.

وشب ملحوظًا بعناية الكمال بن الهمام الحنفي حيث تولى تربيته، وختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثمان سنين، وحفظ «عمدة الأحكام»، و«منهاج البيضاوي» في الأصول، و«منهاج النووي» في الفقه، و«ألفية ابن مالك».

المطلب الثالث
مرحلة تلقي العلم

شرع -رحمه الله- في الاشتغال بالعلم في مستهل سنة أربع وستين وثمانمائة (٨٦٤ هـ) أي في الخامسة عشرة من عمره، فأخذ الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ، وأخذ الفرائض عن العلامة فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي[2]، ولازم الشيخَ علم الدين البلقيني في الفقه حتى مات، ثم لزم ولدَه، وأكمل عليه ما كان قد بدأ قراءته على أبيه.

ولما مات البلقيني الابن تتلمذ السيوطي على شيخ الإسلام شرف الدين المناوي، وقرأ عليه قطعة من «المنهاج»، وسمع دروسًا من «شرح البهجة»، ومن «تفسير البيضاوي»، كما لازم في الحديث والعربية العلامة تقي الدين الحنفي أربع سنين، وصرح -رحمه الله- بأنه لازم الشيخ العلامة محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة، فأخذ عنه الفنون من التفسير، والأصول، والعربية، والمعاني، وغير ذلك، وكتب له إجازة عظيمة بعد أن قرأ عليه «شرح القواعد» له، وأشياء من مختصراته، وسمع عليه من «الكشاف» وحواشيه، و«المغني»، و«توضيح صدر الشريعة»، و«التلويح» للتفتازاني، وتفسير البيضاوي، وغير ذلك.

كما حضر عند الشيخ سيف الدين الحنفي دروسًا عديدة في

(١) ترجم للشيخ ابن إياس في تاريخه، والشعراني في ذيل طبقاته، والغزي في الكواكب السائرة، والعيدروس في النور السافر، وجمال الدين الشبلي في السنا الباهر، والأزدي في طبقات الشافعية، والنابلسي في رحلته، والزركلي في الأعلام، وابن العماد في شذرات الذهب، والشوكاني في البدر الطالع، والمراغي في الفتح المبين وغيرهم.

(٢) الشارمساحي: نسبة إلى -شارمساح- قرية كبيرة قريبة من دمياط . معجم البلدان ٣/ ٣٤٩.

«الكشاف»، و«التوضيح»، و«تلخيص المفتاح».

وقرأ على قاضي القضاة العز أحمد بن إبراهيم الكتاني قطعة من «جمع الجوامع» للسبكي وقطعة من «نظم مختصر ابن الحاجب»، وشرحه.

وبلغ حرصه -رحمه الله- في طلب العلم أن سافر إلى بلاد الشام، والحجاز واليمن، والهند، والمغرب، والتكرور[1].

ولما حج شرب من ماء زمزم لأمور منها: أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر -كما أخبر عن نفسه- وكذلك فعل ابن حجر فإنه شرب من ماء زمزم على أن يكون كالحافظ الذهبي فبلّغهما الله أملهما.

وبالجملة فقد كان للسيوطي مشايخ كثيرون منهم في علم الحديث وحده مائة وخمسون شيخًا، وقد ترجم لهم في كتاب خاص اسمه: «حاطب ليل وجارف سيل».

المطلب الرابع
مرحلة الكتابة، والتأليف

شرع -رحمه الله- في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة، فكتب في علوم شتى في سائر فروع الثقافة الإسلامية والعربية، وحفظ فيها من منقول الكتب من أقوال العلماء، والشرّاح ما لم ينقل إلينا من طريق سواها، وقد اشتهر أكثر مؤلفاته في حياته في أقطار الأرض شرقًا وغربًا.

قال الشعراني -رحمه الله-: لو لم يكن للسيوطي من الكرامات إلا إقبال الناس على كتبه في سائر الأقطار بالكتابة، والمطالعة لكان في ذلك كفاية.

وكان -رحمه الله- آية كبرى في سرعة التأليف.

قال تلميذه الداوودي -رحمه الله-: عاينت الشيخ، وقد كتب في يوم واحد ثلاث كراريس تأليفًا وتحريرًا، وكان مع ذلك يملي الحديث، ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة.

فتصانيف الشيخ -رحمه الله- في كل فن من الفنون مقبولة قد سارت في الأقطار مسير النهار، ولكنه لم يسلم من حاسد لفضله، وجاحد لمناقبه ولكنه كما قيل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم

والحق أنه لا يضير السيوطي أن استدركت عليه بعض الأمور في مصنفاته فإن هذا شأن البشر، ويرحم الله الإمام مالكًا حيث قال: ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويردّ عليه إلا صاحب هذه الحجرة الشريفة -ﷺ-. وما يستدرك على العلماء هو خدمة لكتبهم إذا كان الاستدراك صحيحًا وخلا من التعنت.

المطلب الخامس
مصنفاته

ذكر الداوودي تلميذ السيوطي أن كتب شيخه نافت عدتها على خمسمائة مؤلف وذكر ابن إياس -وكان معاصرًا لوفاته- أن كتبه تجاوزت ستمائة كتاب، وقد عد له الأستاذ بروكلمان أربعمائة وخمسة عشر كتابًا بين مطبوع ومخطوط.

وأيًّا كان الخلاف في عدد هذه الكتب فإنها تمثل ثروة عظيمة تشهد للشيخ بالفضل، والسبق والذكاء، **ومن أهم هذه الكتب ما يلي:**

١- **الإتقان في علوم القرآن.**
٢- **الألفية في مصطلح الحديث.**
٣- **الألفية في النحو.**
٤- **الأشباه والنظائر في العربية.**
٥- **الأشباه والنظائر في فروع الشافعية.**
٦- **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي.**
٧- **ترجمان القرآن.**
٨- **جمع الجوامع.**
٩- **الجامع الصغير.**
١٠- **الحاوي للفتاوي.**
١١- **حسن المحاضرة.**
١٢- **در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة.**
١٣- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور.**
١٤- **شرح شواهد المغني.**

(١) تكرور -براءين مهملتين- مدينة عظيمة مشهورة في بلاد السودان.

١٥- طبقات المفسرين.
١٦- لب اللباب في تحرير الأنساب.
١٧- متشابه القرآن.
١٨- تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد.
١٩- الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض.
٢٠- منظومة في أصول الفقه -نظم فيها جمع الجوامع للسبكي- سماها «الكوكب الساطع».
٢١- شرح الكوكب الساطع، وهو شرح للمنظومة السابقة.
٢٢- جزيل المواهب في اختلاف المذاهب.

وهذه الخمسة الأخيرة في أصول الفقه ولم أطلع على الأخير منها.

ولا عجب أن كتب الشيخ -رحمه الله- كل هذه الكتب؛ لأنه كان يعيش العلم بكل جارحة من جوارحه، بل بكل خلجة من خلجات نفسه.

قال رحمه الله: إني رجل حبب إليَّ العلم والنظر فيه، دقيقه وجليله والغوص على حقائقه والتطلع إلى دقائقه والفحص عن أصوله وجبلت على ذلك فليس فيّ منبت شعرة إلا وهي ممحونة بذلك وقد أوذيت على ذلك أذى كثيرًا من الجاهلين والقاصرين وذلك سنة الله في العلماء.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة: إن الإمام السيوطي عمد إلى أمرين لا تكتمل عدة العالم إلا بهما وهما: الكتاب والرحلة.

فأما الكتاب فربما كان السيوطي في تعلقه به وحبه له قريبًا من تعلق الجاحظ به فلم يترك كتابًا من كتب المراجع الكبرى إلا وقد درسه فهمًا واستظهارًا، وإن من يتابع مسيرة السيوطي الثقافية حتمًا سيقع نظره على أسماء مئات الكتب ذوات الفنون المتعددة التي قرأها على مشايخه فضلًا عما كان يقرؤه بنفسه لنفسه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لزم السيوطي منذ نعومة أظفاره مكتبة محمود الأستادار التي كانت تعرف بـ «المكتبة المحمودية»، والتي يرجع تاريخ إنشائها إلى سنة ٧٩٧ هـ وكانت -حسب وصف المقريزي لها- تحوي من الكتب الإسلامية ما يدخل تحت كل فن.

ومما زاد من قيمة هذه المكتبة أن عالما جليلا هو شيخ الإسلام ابن حجر كان يرعى شأنها، ويهتم بها، وكان بها أربعة آلاف مجلد، وقد أعد لها فهرسًا دقيقًا، وكان صفوة علماء الزمان يستعيرون كتب هذه المكتبة من أمثال العلم البلقيني، والشرف المناوي، وهما من أساتذة السيوطي، على أن الأمر الذي يجذب النظر -كما يقول الدكتور الشكعة- أن السيوطي لم يكتف بملازمة هذه المكتبة، وإنما بلغ من اهتمامه بمحتوياتها ما جعله يقتني كتبها جميعها وينشئ لها فهارس منظمة جمعها في كراسة أطلق عليها «بذل المجهود في خزانة محمود».

أما من ناحية الرحلة فإن السيوطي لم يكتف بالرحلات الداخلية في هذا السبيل مثل تلك الرحلات التي قام بها إلى الإسكندرية والفيوم وأسيوط ودمياط والمحلة الكبرى وغيرها وإنما رحل سنة ٦٨٧ هـ إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، والجلوس إلى علماء الحجاز وهناك التقى ببعض تلاميذ أبيه، يقول السيوطي: «لما حججت شربت من ماء زمزم لأمور منها: أن أصل في الفقه إلى مرتبة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر».

كما اتجه السيوطي شمالا إلى الشام وصعد جنوبًا إلى اليمن، ثم أخذ يضرب في أكناف الأرض حتى دخل الهند، ولما كان السيوطي شديد النشاط محبًّا للرحلات فقد اتجه كذلك إلى المغرب وزار بلاد التكرور، وما حولها في غرب إفريقيا وارتبط بحكامها وعلمائها بروابط عميقة من الود والاحترام وظلت العلاقات قائمة بينه وبينهم وجرت مكاتبات ومراسلات بينهم، وقد سجل السيوطي رحلاته الداخلية في رسائل ومقامات إلا أنه لم يعن بتسجيل رحلاته البعيدة.

بعد ذلك بدأ السيوطي في بذل الكثير من علمه لتلاميذه الذين كانوا يتجمعون حيث يلقي دروسه بأعداد كبيرة وكان حينئذ يملي الحديث، ويجيب عن أسئلة السائلين في وقت واحد وهو في الوقت ذاته حاملٌ قلمه ومحبرته لا يغفل عن الكتابة والتأليف وتلك موهبة ثرية لا تتوافر إلا عند قلة من العلماء ذوي الحلقات الدراسية.

المطلب السادس
تصدره للفتوى

أخبر السيوطي -رحمه الله- عن نفسه بأنه أفتى في مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة، وعقد إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة.

فهو -رحمه الله- استقل بالفتوى استقلالا بعيد المدى واشتد في مناظرة المقلدين، وشنع على التقليد، ونبه إلى أن الاجتهاد في كل عصر فرض.

المطلب السابع
العلوم التي تبحر فيها، والعلوم التي استعصت عليه

رزق -رحمه الله- التبحر في سبعة علوم هي: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

ودون هذه السبعة في المعرفة لدى العلامة السيوطي: أصول الفقه والجدل، والتصريف.

ودونها: الإنشاء، والفرائض.

ودونها: القراءات.

ودونها: الطب.

وعلى الرغم من أن الشيخ -رحمه الله- كان بحرًا في العلم والمعرفة وصاحب همة عالية، وعمق ثقافي كبير إلا أنه كان يشكو من صعوبة علمي الحساب والمنطق.

قال -رحمه الله-: وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليّ، وأبعده عن ذهني، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله ... وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئًا في علم المنطق، ثم ألقى الله تعالى كراهيته في قلبي، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك فعوضني الله عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم.

والحق أن تبحر السيوطي في العلوم السبعة المذكورة واضح وظاهر للقاصي والداني، ومع ذلك نرى السخاوي وهو من أقرانه يقوم بحملة شديدة على الشيخ فيترجم له ترجمة مظلمة غالبها ثلب فظيع وسب شنيع وانتقاص وغمط لمناقبه تصريحًا وتلويحًا.

يقول الشوكاني[1] -رحمه الله-: ولا جرم فذلك دأبه في جميع الفضلاء من أقرانه، وقد تنافس هو والسيوطي منافسة أوجبت تأليف السيوطي رسالة سماها «الكاوي لدماغ السخاوي» فليعرف المطلع على ترجمة السيوطي في «الضوء اللامع» للسخاوي أنها صدرت من خصم له، وعليه فلا تقبل أقوال السخاوي في السيوطي لما هو مقرر عند علماء الجرح والتعديل من عدم قبول قول الأقران في بعضهم بعضا.

ويمكن حصر المطاعن التي وجهها السخاوي إلى السيوطي فيما يلي[2]:

١- أنه كان بليدًا لعدم معرفته للحساب، والحساب في نظر السخاوي فن يعتمد على الذكاء، والذي لا يجيده بليد.

والحق أن هذا المطعن لا ينقص من قدر السيوطي وَمَنْ مِن العلماء كان بحرًا في جميع العلوم؟

إن السيوطي -رحمه الله- اعترف بأن الحساب أعسر شيء عليه؛ لعدم ملاءمته لطبيعته وفضل الله موزع على خلقه، فمنهم الطبيب الذي لا يعرف في الفقه شيئًا، ومنهم المؤرخ الذي لا يعرف في الهندسة شيئًا وهكذا.

٢- ذكر السخاوي أن مؤلفات السيوطي بلغت ثلاثمائة وقال: رأيت منها ما هو في ورقة، وأما ما هو دون كراسة فكثير.

وقد رد الشوكاني على هذا الكلام فقال: قوله: إنه رأى بعضها في ورقة لا يخالف ما حكاه السيوطي من ذكر عدد مصنفاته، فإنه لم يقل إنها زادت على ثلاثمائة مجلد، بل قال إنها زادت على ثلاثمائة كتاب، وهذا الاسم يصدق على الورقة وما فوقها.

٣- زعم السخاوي أن السيوطي اختلس مؤلفات شيخه ابن حجر -رحمه الله- وذكر منها: «لباب النقول في أسباب النزول»، و«عين الإصابة في معرفة الصحابة»، و«النكت البديعات على

(١) البدر الطالع ١ / ٣٢٨.

(٢) المصدر السابق، ومقدمة تحقيق كتاب "قطف الأزهار في كشف الأسرار" للسيوطي ١/ ٤١، تحقيق د/ أحمد الحمادي.

الموضوعات» وغير ذلك، كما اتهمه بأنه أخذ من كتب المكتبة المحمودية وغيرها كثيرًا من المصنفات ونسبها لنفسه.

والحق أن هذا الكلام غير صحيح حيث إن السيوطي كان أمينًا يعزو الأقوال إلى قائليها.

على أن السيوطي لم يكن العالم الوحيد الذي ناله قلم السخاوي الجارح فقد تناول بالطعن والتجريح عددًا من كبار رجال عصره مثل الشيخ زكريا الأنصاري، والبقاعي وغيرهما.

وتعرض العلامة عبد القادر الحسيني الطبري في كتابه «الأرج المسكي في التاريخ المكي» لما كتبه السخاوي في «الضوء اللامع» فقال: «ولا يجوز اعتماد شيء مما في تاريخه الضوء اللامع فإنه بناه على اتباع الهوى والغرض وحب الظهور فيزيد وينقص ويؤخر باعتبار أغراضه، ولقد كان السيوطي يسميه (الجراح)، ومن رأى ترجمته في تاريخه المذكور للشيخ الديمي، والقاضي زكريا وغيرهما من الأجلاء رأى العجب العجاب فما زاد أن جعل الواحد منهم طويلب علم لا طالب علم. سامحه الله»[1].

وما أجمل قول بعض الحكماء: الإنسان في فسحة من عقله، وفي سلامة من أفواه الناس ما لم يضع كتابًا، أو لم يقل شعرًا، فإن من صنف كتابًا فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد استهدف من الغيبة والحسد، وإن أساء فقد تعرض للشتم والقذف.

المطلب الثامن
دعواه الاجتهاد المطلق

اتفق كل من ترجم للشيخ أنه أخبر عن نفسه بلوغه درجة الاجتهاد المطلق حيث قال: ... وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد وبحمد الله تعالى أقول ذلك تحدثًا بنعمة الله تعالى لا فخرًا.

وقال: والذي ادعيناه هو الاجتهاد المطلق لا الاستقلال[2]، بل نحن تابعون للإمام الشافعي -رضي الله عنه- وسالكون طريقه في الاجتهاد امتثالا لأمره، ومعدودون من أصحابه، وكيف يظن أن اجتهادنا مقيد، والمجتهد المقيد إنما ينقص عن المطلق بإخلاله بالحديث أو العربية، وليس على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها أعلم بالحديث والعربية مني إلا أن يكون الخضر[3]، أو القطب أو وليًّا لله فإن هؤلاء لم أقصد دخولهم في عبارتي.

وأقول: هو في دعواه مقبول ومشكور، فالشيخ -رحمه الله- أحيا علم التفسير في الدر المنثور، وجمع الكثير من الأحاديث المتفرقة في جامعه المشهور، وما ترك فنًّا إلا له فيه متن أو شرح مسطور. بل وله زيادات يستحق أن يكون هو المبعوث على رأس المائة التاسعة.

المطلب التاسع
وفاته

ظل السيوطي -رحمه الله- طول عمره مشتغلا بالتدريس والفتيا، متحليًا بالصبر والزهد لا يمد يده لسلطان، ولا يقف من حاجة على باب أمير أو وزير إلى أن توفي -رحمه الله- بالقاهرة في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وله من العمر إحدى وستون سنة وعشرة أشهر، وثمانية عشر يومًا.

المبحث الثالث
أثر الشيخ في علم أصول الفقه

وفيه مطالب:

المطلب الأول: في مكانة أصول الفقه عند الشيخ.

المطلب الثاني: في مكانة الاجتهاد في الشريعة.

المطلب الثالث: دراسة موجزة حول كتاب: «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض».

المطلب الرابع: دراسة موجزة حول كتاب: «تقرير الاستناد في

(١) الأرج المسكي، ص: ٦ .

(٢) المجتهد المطلق غير المستقل هو الذي وجدت فيه شروط الاجتهاد التي اتصف بها المجتهد المستقل، ثم لم يبتكر لنفسه قواعد، بل يسلك طريقة إمام من أئمة المذاهب في الاجتهاد، وقد يخالف إمامه في اجتهاداته، فهذا مطلق منتسب لا مستقل ولا مقيد.

(٣) هذه العبارة تفيد أن الشيخ من القائلين ببقاء الخضر حيًّا، ولكن الصواب هو القول بموته لقوله -ﷺ- كما في صحيح البخاري: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد» قال ذلك لصحابته قبل موته بأيام.

تفسير الاجتهاد».

المطلب الخامس: دراسة موجزة عن الكوكب الساطع وشرحه.

المطلب الأول
مكانة أصول الفقه عند الشيخ

لا يختلف اثنان في أن علم أصول الفقه لا يستغني عنه طالب المعرفة، ومريد الحقيقة، وكيف لا؟ وهو الذي يبين المناهج التي سار عليها الأئمة المجتهدون وهم يستنبطون الأحكام من الأدلة.

فهو لا شك من أجل العلوم وأعظمها أثرًا في تكوين العقل الفقهي، وهذا هو السر في أن علماء الأمة -جزاهم الله خير الجزاء- أعملوا جهدهم في فسيح مجالاته، وركبوا الصعب من أجل تحديد معالمه حتى جعلوه علمًا قائمًا بذاته.

وبديهي أن علمًا -هذا شأنه- لا يمكن إلا أن يكتب فيه السيوطي -رحمه الله- وهو صاحب المصنفات العديدة في شتى الفنون، وقد ذكر المترجمون للشيخ أن له في الأصول خمسة كتب رأى منها النور الآن -حسب معرفتي- ثلاثة، هذا بالإضافة إلى ما كتبه الشيخ عن الإجمال، والبيان، والنسخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد وغيرها في «الإتقان» و«معترك الأقران» ونحوهما من مصنفاته حيث إن هذه المواضيع مشتركة بين أصول الفقه، وعلوم القرآن.

فالشيخ كتب في علم الأصول لكنه لم يتبحر فيه كما تبحر في علوم الفقه، والتفسير وغيرهما من العلوم السبعة التي صرح بنبوغه فيها، وقد اعترف الشيخ بأن أصول الفقه -بالنسبة له- يأتي في المرتبة الثانية بعد العلوم السبعة التي تبحر فيها.

وهو كما قال حيث إن المتدبر لما كتبه في التفسير، والفقه، والحديث، والنحو والمعاني، والبيان، والبديع يجده بحرًا لا قرار له، ويدرك أنه -رحمه الله- قد أطال النفس وهو يكتب في هذه العلوم، وأنه جمع فيها كل ما يحتاج إليه طالب المعرفة.

أما علم أصول الفقه فقد كان الشيخ عالمًا فيه -دون ريب- ولكنه لم يحظ منه بالاهتمام كما حظيت كتاباته في علوم القرآن، فهو -رحمه الله- لم يخض غماره، ولم يقتحم لجته، ولم يسبر أغواره كما فعل الغزالي والآمدي وابن الحاجب -مثلا-، ولكنه كتب فيه الكتب المذكورة التي اعتمد فيها على حسب ما اطلعنا عليه منها على نقول العلماء الذين سبقوه.

وهي في جملتها قد أسهمت -إلى حد ما- في تجلية المواضيع التي تناولتها، وأن من جاؤوا بعده قد استفادوا مما كتب سيما كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض».

المطلب الثاني
مكانة الاجتهاد في الشريعة الإسلامية

عقدت هذا المطلب لسببين:

الأول: ليكون توطئة وتمهيدًا للكلام عن الكتابين اللذين سأتحدث عنهما في المطلبين الثالث والرابع حيث إن الشيخ -رحمه الله- لم يتحدث فيهما إلا في الاجتهاد.

الثاني: أن موضوع الاجتهاد في غاية الأهمية بالنسبة لنا نحن معشر المسلمين.

والحق أن الاجتهاد لا بد منه في فهم الشريعة؛ حيث إن استنباط الأحكام من الأدلة لا يكون إلا عن طريقه، وهو في نظر جمهور الأصوليين أعم من القياس؛ لأنه يشمل بذل الجهد فيما فيه نص ظني للوصول إلى الحكم الشرعي الذي دل عليه ذلك النص، كما يشمل بذل الجهد فيما لا نص فيه للوصول إلى الحكم، أما القياس فهو قاصر على إلحاق ما لا نص فيه على ما فيه نص.

كما أن طرق الاجتهاد متعددة تشمل بذل الجهد في فهم النصوص، وفي التوفيق بين ما ظاهره التعارض، وفي التأويل والترجيح ونحو ذلك، أما القياس فليس له إلا طريقة واحدة هي البحث في علة الحكم؛ لتعدي هذا الحكم إلى كل واقعة وجدت فيها علته.

وهذا الاجتهاد لا يمكن لكل واحد أن يدعيه حيث إن له ضوابط وشروطًا لا تتوافر لكل الناس.

وللأسف الشديد ادعاه في عصرنا أناس كثيرون، ظن الواحد منهم أنه ما دام قرأ بعض الكتب في العقيدة، أو السنة -مثلا-

يكـون مـن أهل الاجتهـاد، وعليـه فهو يأخـذ الأحكام بنفسـه مـن الكتـاب والسـنة، وهذه هـي الطامـة الكبرى، ولـو أن كل واحـد مـن المسـلمين أجـاد في تخصصـه، واجتهد فيه لسـعدت الأمـة، وتقدمت أمم الأرض قاطبـة، ولكن ترك الطبيب الطب واشـتغل بالاجتهـاد، وتـرك المهندس مجـال عمله واشـتغل هو الآخر بالاجتهاد وهلم جرا.

وأقـول: هل يسـأل طبيب العيـون عن أمـراض البطون؟ وهل يسـأل طبيـب الأنـف والأذن والحنجرة عن أمـراض القلب أو الجهاز التناسـلي؟ وهل يسـأل المهندس المدني عن تفجير الذرة؟ وهـل يسـأل المتخصـص في الفقـه -مثـلا- عـن كيفيـة صناعة الأدوية؟

إن الجـواب عـن كل هذه الأسـئلة لا يكـون إلا بالنفـي، وعليه فالواجـب على كل واحد منـا أن يجتهد، ويتفوق في المجال الذي تخصص فيه؛ لينفع أمته.

والذي يظهـر لي أن محاولة ادعاء الاجتهاد هذه هي التي جعلت بعـض العلماء في العصور المتأخرة يحكـم بإغلاق باب الاجتهاد وانتهاء عصره بانتهـاء القرن الثالث الهجري، وذلك لما رأوا من الفـوضى في التشريع والاجتهاد، حيـث ادعى هذه الرتبة العالية لنفسه من ليس أهلا لها، وتصدى للإفتاء من لا يدري من قواعد علوم الاستنباط القليل فضلا عن الكثير.

والحـق أن بـاب الاجتهاد الـذي فتحه الله لا يمكـن لمخلوق أن يغلقه وذلك لما يلي:

١- أنه أمر شرعه الله تعالى، وأرشـد إليه، وعليه فالأمر بإغلاقه فيه محاداة لله تعالى، ورسوله -ﷺ-.

٢- أن الدعـوة إلى إغلاق باب الاجتهاد بحجة أنه لا يوجد من يصلـح لهذا المنصب رجم بالغيـب، وحجر لرحمة الله، وتكذيب للرسول -ﷺ- الذي أخبر بأن الله عز وجل سيبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها.

ولقـد ظهر جماعة مـن المجتهديـن في عصور التقليـد منهم: ابن تيمية، وابن القيم والعز بن عبد السلام رحمهم الله.

٣- أن الاجتهاد شيء ضروري جدًّا نظرًا لتنوع الحوادث.

فالاجتهـاد بكل أنواعه بابه مفتوح والمعـول عليه فقط هو توافر الشروط في الشخص ذاته، وأضرب لذلك مثلا ليتضح الأمر: لـو أن جامعة الأزهر الشريف رصـدت عدة جوائز لعمل معين بـشروط معينة، وحجبت الجائزة الأولى فلم تعطها لأحد؛ لعدم توافر الشروط التي اشـترطتها في الشخص، وفي العمل العلمي ما ينبغي لأحد أن يقول: إن جامعة الأزهر ألغت الجائزة وذلك لأنها لم تُلْغَ، وإنما حجبت لعدم توافر الشروط.

فالاجتهاد بابه مفتوح لمن تتوافر فيه الشروط، والأمة الإسلامية في حاجة ماسة في هذا العصر إلى المجتهدين نظرًا لظهور حوادث وقضايا جديدة لم يكن لها مثيل فيما سبق.

على أنه ينبغي التنبيه على أن الاجتهاد المحتاج إليه في هذا العصر هـو الاجتهاد الجماعي الذي يكون في صـورة مؤتمرات يحضرها مـن تتوافر فيـه شروط الاجتهاد؛ وذلـك نظرًا لدقـة المواضيع، وتنوع الحوادث والوقائع.

ولا يكفـي أبدًا بأي حال من الأحـوال الاجتهاد الفردي مع أنه لا غنى عنه؛ لأنه هو الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي.

المطلب الثالث
دراسة موجزة حول كتاب «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»

هـذا الكتاب مقطـوع بصحته إلى الإمام السـيوطي وهو مطبوع ويقـع في ١٣٣ صفحـة، وقـد اسـتفتحه بالثناء عـلى الله تعالى بما هـو أهله، والصلاة والسـلام على رسـوله -ﷺ- ثم بين سـبب تأليفه الكتـاب فقال: إن الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم، وأعماهم حـب العناد وأصمهم، فاسـتعظموا دعوى الاجتهاد، وعـدوه منكرًا بين العباد، ولم يشـعر هؤلاء الجهلـة أن الاجتهاد فـرض مـن فروض الكفايـات في كل عصر، وواجـب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر.

وقد اشتمل هذا الكتاب على أربعة أبواب:

تحـدث الشـيخ في الباب الأول: عـن حكم الاجتهـاد، وأبان أنه

مـن فروض الكفايات، وسـاق نصوصًا كثـيرة للأئمة تعضد ما ذهب إليه.

أمـا الباب الثاني: فقد تكلم فيه عن مسـألة خلو الدهر أو العصر عـن مجتهد، واهتم بنقل أقوال العلماء من كل المذاهب؛ لتأييد ما ذهب إليه من عدم جواز خلو الدهر أو العصر عن مجتهد.

ومـن العجب أنه جعل عنوان البـاب «ذكر نصوص العلماء على أن الدهر لا يخلو عن مجتهد، وأنه لا يجوز عقلا أي لا يمكن خلو العصر منه».

وأرى أنه لو تناول الكلام عن مسألة خلو العصر عن مجتهد عن طريـق حصر الأقـوال، وذكر أدلـة كل قول لـكان ذلك أجدى للقارئ وأنفـع للباحث، ولكنه -رحمه الله- كان يركز على تأييد ما يـراه حقًّا بنقل نصوص العلماء، ومعلـوم أن نصوص العلماء ليست أدلة، وإنما يستأنس بها فقط لفهم ما يعز فهمه.

والحق أن مسـألة خلو العصر عن مجتهـد تكلم فيها العلماء كثيرًا وخلاصة ما يقال فيها:

إنـه عند ظهـور أشراط السـاعة الكـبرى مثل خـروج الدجال، وطلـوع الشـمس من المغـرب يجـوز أن يخلو الزمـان عن مجتهد قائـم لله بالحجـة؛ لقوله ﷺ-: «لا تقـوم السـاعـة على أحـد يقـول: الله الله»[1]، وقـولـه -ﷺ-: «لا تقـوم السـاعة إلا على شرار الناس»[2].

أما قبل أشراط السـاعة فقد اختلف العلماء في جواز خلو العصر عن مجتهد على قولين[3]:

الأول: يجوز خلو العصر عن مجتهـد.

وهذا قول أكثر العلماء.

الثاني: لا يجوز أن يخلو العصر عن مجتهـد.

وهـذا هـو قـول الحنابلـة، وبه جـزم أبو إسـحاق الإسـفراييني والزبـيري، ونسـبه أبو إسـحاق إلى الفقهاء، وتحمـس له جلال الدين السيوطي.

والـذي رأيتـه بعد اسـتعراض أدلة هذين القولـين أن النزاع بين العلماء في هذه المسألة نزاع لفظي فقط حيث لم يتوارد فيه للنفي، والإثبـات عـلى محل واحـد، فمن قال بجـواز خلـو الزمان عن مجتهد أراد الخلو عن المجتهد المطلق المسـتقل الذي يبني اجتهاده على أصول وقواعد وضعها هو كالأئمة الأربعة.

ومـن قـال بعدم جـواز خلـو الزمان عـن المجتهـد أراد المجتهد المطلق المنتسب أو المجتهد في المذهب أو المجتهد في الفتوى.

وبهذا يجمع ويوفق بين القولين.

ولقـد توافـر المجتهـد المطلق المسـتقل في القـرون الأولى؛ لأنهم كانوا يطلبون العلم للعلم فأعطاهم الله مع العلم نورًا.

أما أكثر العلماء الآن فلم تتوافر فيهم شروط الاجتهاد المطلق مع كثرة الكتب والمراجع وسـهولة تداولهـا؛ وذلك نظرًا لأن طلب العلـم الآن ليس مـن أجل العلـم، وإنما هو من أجـل الوصول إلى كسـب دنيـوي، مـع إيماني المطلـق بأن الله عظيـم، وليس من المسـتحيل أن يظهر من المسـلمين الآن من يبلـغ درجة الاجتهاد المطلـق إن أُكْـرِم العلـماء، وَهُيِّئَـتْ لهم حيـاة معيشـية كريمة لا يحملـون معهـا همًّا لطعـام أو شراب أو ملبـس، أو مركب فإنهم حينئذ ينصرفون للبحث، والاجتهاد والنظر، والاستنباط.

هذا وقد ختم الشيخ الباب بالرد على القائلين بأن المجتهد المطلق قـد فُقِدَ من قديم، وانتصر لقوله بـأن المجتهد المطلق لم يفقد، ثم صرح بأنه وصل إلى درجة الاجتهاد المطلق.

أما الباب الثالث: فضمنه توجيهات السلف والخلف التي تحث عـلى الاجتهاد، وتحض عليه، وتنهى عن التقليد وتذمه، وسـاق أسماء عدة كتب تنهى عن التقليد منها:

١- «فساد التقليد» للمزني صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه.

٢- «التسديد في ذم التقليد» لابن دقيق العيد رحمه الله.

٣- «إبطال التقليد» لابن حزم رحمه الله.

وقـد تصـدى الشـيخ في هذا البـاب لمناقشـة المجيزيـن للتقليد، وتحدث عن نشأته، وأبان أنه حدث في القرن الرابع الهجري.

وقد أطال النفس في هذا الباب وتحدث فيه حديث العالم الواعي الفاهم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب/ ذهاب الإيمان آخر الزمان.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٣٥.

(٣) راجـع أدلـة هذيـن القولين في كتابنـا "تبصير النجبـاء بحقيقة الاجتهـاد والتقليد، والتلفيق والإفتاء".

أما الباب الرابع: فجعل عنوانه «فوائد منثورة تتعلق بالاجتهاد».
وقد ذكر في هذا الباب سبعًا وأربعين فائدة، والذي يلفت النظر عند قراءتها أنها كلها -عدا اثنين- عبارة عن نُقُول من أقوال العلماء المتقدمين، ولو لم يكن للشيخ في هذا الباب إلا حصر هذه الفوائد المتناثرة في بطون الكتب وجمعها فيه لكفى؛ حيث إن في ذلك تسهيلًا على القارئ، والباحث.
هذا والكتاب لا يختلف اثنان في أنه مفيد في موضوعه رجع إليه كل من قرأ أو كتب في هذا الموضوع، وهو في نظري عبارة عن موجز جامع لكل جزئيات المسألة، ولا يمكن لأحد أن يكتب بإطناب في هذا الموضوع إلا إذا رجع إليه واستفاد منه.

المطلب الرابع
دراسة موجزة حول كتاب
«تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد»

يتبين لنا من المصادر التي ترجمت للسيوطي أن الكتاب له وهو مطبوع ويقع في إحدى وأربعين صفحة، ولم يذكر للشيخ -رحمه الله- تعريف الاجتهاد، وإنما ابتدأ الكلام في الكتاب ببيان أن الاجتهاد من فروض الكفايات، وتحدث هنا بإيجاز حيث لم يذكر النقول الكثيرة التي ذكرها وهو يتحدث عن هذه الجزئية في كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض» كما تناول بإيجاز أيضًا مسألة خلو العصر عن مجتهد، ورجح ما رجحه في كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض» ثم ذكر بعد ذلك شروط الاجتهاد، وبين أن العلوم التي تشترط في الاجتهاد بضعة عشر علمًا هي علوم الكتاب والسنة، وأصول الفقه، واللغة، والمعاني المفهومة من السياق، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، وعلم الإجماع والخلاف، وفقه النفس، والإحاطة بمعظم قواعد الشرع، وعلم الأخلاق، وعلم الحساب.
ثم قال وهو يتحدث عن علم الحساب: وهذا شرط في المجتهد المطلق في جميع أبواب الشرع، أما المجتهد فيما عدا الفرائض ونحوها فلا يشترط به.
ثم تكلم عن كيفية الاجتهاد وترتيبه فنقل ما ذكره الغزالي في «المنخول» ولم يزد عليه.
وبين في فصل مستقل أن المجتهد مجدد للدين في كل قرن، واستدل على ذلك بعدة أحاديث.
وعقب هذا الفصل بالكلام عن الاجتهاد من حيث عدم انقطاعه، وتناول بالرد الذين ادعوا أن الاجتهاد انقطع، وعدد أسماء علماء بلغوا رتبة الاجتهاد منهم: عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وابن تيمية، والسبكي رحمهم الله.
ثم عقد فصلًا بعنوان «التحدث بنعمة الله تعالى» ساق فيه نصوصًا من الكتاب والسنة وأقوال العلماء توجب التحدث بنعمة الله تعالى، وكأنه بذلك يشير إلى أنه بلغ رتبة الاجتهاد، ولعل هذا هو السر في أنه عقب هذا الفصل بفصل ختم به كتابه رد فيه على معارضيه دعواه الاجتهاد وقال:
شنع مشنع عليَّ دعوى الاجتهاد بأني أريد أن أعمل مذهبًا خامسًا، وربما زادوا أكثر من ذلك، ومثل هذا التشنيع إنما يمشي على عقول العوام، ومن جرى مجراهم.
وبالجملة: فالكتاب -مع ما فيه من تكرار- مفيد، وهو مع سابقه يعتبران من المراجع المهمة لموضوع الاجتهاد.

المطلب الخامس
دراسة موجزة عن
«الكوكب الساطع وشرحه»

كتاب «الكوكب الساطع»[1] هو نظم لجمع الجوامع لتاج الدين السبكي.
وقد وقع النظم في ألف وأربعمائة وخمسين بيتًا (١٤٥٠)، وبعد أن نظم السيوطي الكتاب المذكور شرحه شرحًا طيبًا يدل على عقلية كبيرة، وإذا نظرنا إلى دقة عبارة «جمع الجوامع» أدركنا مدى عبقرية السيوطي في نظم هذا الكتاب وشرحه.
والحق أني مكثت في نقل المخطوط وتحقيقه ما يقرب من ثلاث سنوات حيث إن العمل بتحقيق مثل هذا الكتاب ليس بالأمر الهين، ولا بالشيء السهل؛ لأنه كتاب أصولي لإمام كبير عرف العلماء منزلته ومكانته، وأقروا له بالفضل والسبق.

(١) طبع النظم وحده في القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ.

ويكفي هذا الكتاب فخرًا أنه تأليف السيوطي، ويكفي السيوطي فخرًا أنه السيوطي.

وقد تناول الشيخ الكلام عن أصول الفقه، وأصول الدين بأسلوب واضح، وعبارة سهلة.

وبالجملة فهو كتاب عظيم قدره كثيرة فوائده تنشرح له صدور المؤلفين، وتبتهج بالقراءة فيه عيون المؤمنين.

ما يدل على نسبة الكتاب للشيخ:

في أثناء شرح الشيخ السيوطي -رحمه الله- في هذا الكتاب أحال في أكثر من موضع إلى بعض كتبه كـ «الأشباه والنظائر في النحو»، و«الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية»، و«قطف الأزهار المتناثرة»، و«شرح تقريب النواوي» وغيرها.

وهذا يدل على أن نسبة الكتاب للشيخ مقطوع بها.

وقد صرح بذلك حاجي خليفة[1] حيث قال وهو يتحدث عن كتاب «جمع الجوامع» لتاج الدين السبكي: ونظمه جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ سماه «الكوكب الساطع» وشرح هذا المنظوم له أيضًا.

وقال الشيخ محمد حسنين مخلوف[2] -رحمه الله- وهو يتكلم عن «جمع الجوامع»: وممن نظمه ... الجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وشرح نظمه أيضًا.

مزايا الكتاب:

من أهم مزاياه ما يلي:

١- حفظ لنا هذا الكتاب نصوصًا من كتب كثيرة منها ما هو منشور، ومنها ما هو مفقود.

٢- يعتبر الكتاب مرجعًا لأسماء كتب كثيرة في كل الفنون المتعلقة بأصول الفقه، وأصول الدين، والتفسير، والحديث.

مثالب الكتاب:

لاحظت أثناء تحقيقي الكتاب ما يلي:

١- عدم اهتمام الشيخ بشرح مفردات نظمه، وإنما كان مهتمًّا بشرحه إجمالا.

٢- ذكر السيوطي كلام الجلال المحلي في أكثر من موضع دون أن يصرح أو يشير بأنه كلام المحلي مما يفهم منه أنه كلام السيوطي، ولعل عذر الشيخ أنه وأمثاله من علماء الأمة كانوا يحفظون الكتب، وحين يؤلفون يتركون لأقلامهم العنان في كتابة كل شيء من الذاكرة.

المنهج الذي نهجه الشيخ السيوطي:

يتلخص المنهج الذي نهجه السيوطي في الكتاب فيما يلي:

١. كان يذكر النظم، ويقوم بشرحه إجمالا.

٢- لم يكتف الشيخ بذكر المذاهب التي ذكرها تاج الدين السبكي بل كان يضيف إليها أحيانًا مذاهب أخرى ويصرح بذلك ويقول: هذا من زياداتي.

٣- كان يقوم بترجمة بعض الأعلام في أثناء الشرح.

٤- حكم الشيخ على بعض الأحاديث التي كان يستدل بها.

٥- كان يحيل في أثناء شرحه إلى أمهات الكتب.

المنهج الذي نهجته في التحقيق:

لقد نهجت في تحقيق الكتاب ودراسته المنهج التالي:

١- ضبطت النص ضبطًا متقنًا من نسختي المخطوط.

٢- قمت بترقيم الآيات القرآنية، وذكر سورها.

٣- خرجت الأحاديث التي ذكرها الشيخ بقدر الوسع والطاقة حيث إن الشيخ -رحمه الله- ملأ المخطوط بأحاديث كثيرة متنوعة أخذها من جميع الصحاح، والسنن، والمسانيد، والمعاجم، والمؤلفات الموضوعية ككتب الزهد.

٤- تفسير الألفاظ الغريبة في الأحاديث وغيرها.

٥- ترجمة الأعلام الذين ذكرهم الشيخ بقدر المستطاع.

٦- إرجاع كل نص إلى مصدره الأصلي طالما كان هذا المصدر موجودًا.

٧- أفدت كثيرًا في التعليق على المخطوط من جميع كتب الأصول عامة، و«حاشية البناني» خاصة.

هذا: ولعلي أكون بهذا الجهد المتواضع قد أسهمت في إحياء مرجع للباحثين يوفر لهم من الجهد الكثير.

(١) راجع: كشف الظنون ١/ ٥٩٧.

(٢) راجع: بلوغ السول في مدخل علم الأصول، ص: ٢٠٣.

وصف نسخ المخطوط:

اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسختين:

الأولى: أقرب لدقة الخط النسخي من مدرسة علي بن هلال[1] (ابن البواب) -رحمه الله- ومستوى الخط فيها واحد فهي مكتوبة بخط صغير واضح، وتقع في مائة وإحدى وتسعين لوحة، وكتب في آخرها: فرغ من نسخه يوم الإثنين المبارك ثاني عشر من شهر رمضان المعظم قدره سنة سبع وثمانين وثمانمائة.

أما الثانية: فتبدو أحدث تاريخًا من الأولى، ويغلب أن يكون كاتبها غير عربي، فقد مزج في حروفه بين خطي الرقعة والفارسي مع عدم إبداء كثير عناية، وتأنق في الكتابة رغم وضوح خط المخطوط، وغلظ القلم الذي كتب به، وتقع في خمسمائة وأربع وثلاثين لوحة.

وفي آخرها: قال مؤلفه -رحمه الله تعالى-: فرغت من هذا الشرح يوم الخميس رابع عشر ذي القعدة الحرام سنة سبع وسبعين وثمانمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ويبدو أن الشيخ -رحمه الله- بعد أن انتهى من الشرح في رمضان نظر إليه مرة أخرى، وانتهى منه في ذي القعدة من نفس السنة والله أعلم.

وبعد: فهذا قليل من كثير يجب أن يكتب عن الشيخ السيوطي رحمه الله.

رزقنا الله العلم والعمل وطهر قلوبنا من كل ما يحول بيننا وبين رضاه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) علي بن هلال أبو الحسن المعروف بابن البواب خطاط مشهور من أهل بغداد، هذب طريقة ابن مقلة وكساها رونقًا وبهجة، نسخ القرآن الكريم بيده أربعًا وستين مرة، توفي -رحمه الله- سنة ٤٢٣ هـ. راجع: الأعلام ٥/ ٣٠.

فهرس المراجع

١- الأرج المسكي في التاريخ المكي، علي بن عبد القادر بن محمد الطبري الحسيني الشافعي المكي (ت: ١٠٧٠).

٢- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ).

٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور، أبو البركات محمد بن أحمد ابن إياس الناصري الحنفي (ت: ٩٣٠هـ).

٤- بلوغ السول في مدخل علم الأصول، محمد حسنين مخلوف العدوي المالكي الأزهري (ت: ١٣٦٩هـ).

٥- تبصير النجباء بحقيقة الاجتهاد والتقليد والتلفيق والإفتاء، محمد بن إبراهيم الحفناوي.

٦- حاشية على شرح المحلي لجمع الجوامع، عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي (ت: ١١٩٨هـ).

٧- الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (ت: ١١٤٣هـ).

٨- الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ).

٩- السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد الشبلي الحضرمي (ت: ١٠٩٣هـ).

١٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي ابن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي (ت: ١٠٨٩هـ).

١١- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ).

١٢- الفتح المبين في طبقات الأصوليين، عبد الله مصطفى المراغي.

١٣- قطف الأزهار في كشف الأزهار، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ).

١٤- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن

عبد الله كاتب جلبي، حاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ).
١٥- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، نجم الدين محمد ابن محمد الغزي (ت: ١٠٦١هـ).
١٦- الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ).
١٧- لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (الطبقات الكبرى)، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الأنصاري الشعراني (ت: ٩٧٣هـ)
١٨- المسند، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ).
١٩- معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ).

فهرس الموضوعات

تقديم ١٠
المبحث الأول : عصر السيوطي ١١
المبحث الثاني: التعريف بالشيخ السيوطي ١١
المطلب الأول: اسمه ولقبه، نسبته، مولده ١٢
المطلب الثاني: نشأته ١٢
المطلب الثالث: مرحلة تلقي العلم..... ١٢
المطلب الرابع: مرحلة الكتابة، والتأليف..... ١٣
المطلب الخامس: مصنفاته..... ١٣
المطلب السادس: تصدره للفتوى ١٥
المطلب السابع: العلوم التي تبحر فيها، والعلوم التي استعصت عليه ١٥
المطلب الثامن: دعواه الاجتهاد المطلق ١٦
المطلب التاسع: وفاته ١٦
المبحث الثالث : أثر الشيخ في علم أصول الفقه ١٦
المطلب الأول: مكانة أصول الفقه عند الشيخ ١٧
المطلب الثاني: مكانة الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ١٧
المطلب الثالث: دراسة موجزة حول كتاب "الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض" ١٨
المطلب الرابع: دراسة موجزة حول كتاب «تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد» ٢٠
المطلب الخامس: دراسة موجزة عن «الكوكب الساطع وشرحه» ٢٠
فهرس المراجع ٢٢
فهرس الموضوعات..... ٢٣